زكي بك غالي

(١٨٧٥–١٩٤٤)

بقلم الاب رفائيل نخلة اليسوعي

هو ابن حليم بك القبطي الكاثوليكي ابن دوس بك . ابن المعلم غالي . الذي كان بمثابة وزير المالية لمحمد علي باشا ، ولم يشتهر بمجرد علو مقامه بين اعظم السياسيين المصريين ، بل بسمو فضائله . امه حُنَينة من طائفة الاقباط الكاثوليك .

وُلد زكي في القاهرة في ٣٠ ايلول ١٨٧٥ ، وعُمد باسمي فيليبس وجرار (Gérard) .

كانت والدته ممتازة بالتقوى واللطف والبساطة ، بعيدة عن روح العالم ، باذلة نفسها في خدمة الله تعالى وزوجها واولادها . قد رزقها المولى اربعة عشر ولداً ، مات منهم خمسة في طفولتهم ، وبقي ستة بنين وثلاث بنات . وقد تزوجوا كلهم .

ابو زكي كان شديد الورع كزوجته . وله في بيته كاهن يقيم القداس في معبد الدار . فيحضره جميع اهلها كل صباح . في المساء كان حليم يصلي السبحة الوردية ، فتجيبه زوجته والاولاد قاطبةً . كان يهذب ابناءه وبناته بعنف معتدل . من مظاهره الغريبة انه ، اذا تأخر احدهم عن الجلوس على المائدة ، بعد دقة الجرس ، يُحرم انواع الطعام التي رُفعت قبل حضوره . ولو كان كبير السن ، بل متزوجاً .

كان لحليم عدة عبيد زنوج قائمين بخدمة بيته من اعوام عديدة ، وقد حررهم كلهم ، حين حرّمت الكنيسة شراء العبيد ، لكنهم قد رفضوا الانفصال

عنه . لفرط لطفه وسخائه ، فضلوا في خدمته . كان احدهم خصيصاً مسمى اسمه مرجان اغا . وقد خوله سيده السلطة على جميعهم . أصيب بمرض ثقيل في اثناء سفر . فطلب ان يُنقل الى بيت مولاه المحبوب ، ليموت عنده مسيحياً مثله . فنال بغيته .

ربا زكي في ذلك البيت المعطّر بعبير اسمى الفضائل المسيحية ، فرسخت كلها في روحه النبيلة . وما لبثت ان انبتت اجمل الزهور واتت بالذ الثمار . حول الخامسة من عمره . دخل بصفة تلميذ نصف داخلي ، مدرسة العائلة المقدسة للبيرعيين . الحديثة النشأة في القاهرة . رأى مرارًا في طريقه لبيه كثرة المتحدين . فطلب من ابيه مبلغاً كافياً من الدراهم لتوزيعه عليهم . بعد حين قال له . « ابت . اختي ان يشتري اولئك المتسولون حسناتي « حشيشا » . فافضّل ان تعطيني كمية كبيرة من الخبز لاقسمها عليهم . » فتعجب والده من بُعد نظره مع صغر سنه .

اكب زكي على الدراسة الابتدائية والثانوية في المدرسة المذكورة ، وختمها حين انشأت وزارة المعارف شهادة البكالوريا ، فكان سنة ١٨٩٥ من اول المصريين الفائزين بها . بعدئذ درس الحقوق في جامعة باريس ، مدة ثلاثة اعوام . فنال شهادة المأذونية (الليسانس) سنة ١٨٩٨ ؛ وقد امتنع طول اقامته هناك عن شرب المسكرات . انقيادًا لوصية ابيه . بعد رجوعه الى الوطن فاز بشهادة المعادلة المصرية في الحقوق سنة ١٨٩٩ .

في كانون الاول ١٨٩٩ عُين وكيلاً لنيابة المنصورة المختلطة ، ثم قام ثلاث سنين بمثل تلك الوظيفة في القاهرة . ما زال يترقى حتى عُين وكيلاً لنيابة الاستئناف في محكمة الاسكندرية المختلطة . فبقي في هذا المنصب سبعة اعوام . سنة ١٩١١ قُلد رئاسة نيابة المحكمة المختلطة في المنصورة ، وسنة ١٩١٤ عُين رئيس محكمة القاهرة المختلطة . وقد دامت مزاولته لتلك المهام اربعين عاماً الى ان بلغ سن التقاعد .

شهد جميع زملائه على انه قد امتاز بكمال العدل والنزاهة ؛ ولا سيما طول قيامه بوظيفة القضاء العسيرة . كثيرًا ما كان يخص ساعات عديدة ، ليلاً ونهارًا ، بدرس القضايا المعقدة ، لئلا يمس احدًا ادنى ظلم في احكامه . قد كرر مرارًا هذا القول : « ما اشد واجب العدل على القاضي ، فانه له الحق ان يحاكم الملك ويحكم بالاعدام على انسان مثله ! » فلا بدع بكونه

قد ذكّر بتواتر المترافعين والمحامين والشهود واجب احترام الضمير والاقسام المحلوفة . من جهة اخرى كان دأبه ان يخفف عنف العدل بلطف الوداعة . فاذا تحتم عليه الحكم بعقاب شديد على مجرم ؛ كان يجامله ويحثه على الندامة وقبول القصاص .

كانت له مواقف شهيرة في الدفاع عن الحقوق المهضومة ببراهين قاطعة مؤثرة . قد امتاز ايضاً بغيرته على مصالح مصر التجارية . فانهالت عليه رسائل الشكر الحار من الغُرف التجارية . فمنحته الحكومة رتبة البكوية من الدرجة الاولى سنة ١٩١٣ ؛ واهدت له الوسام المجيدي ايضاً .

حين اضطُر سنة ١٩٤٠ الى ترك وظيفة القضاء ، عاد الى الاشتغال بالمحاماة . ليزيد رفاهية عائلته . عامئذ كتب وصيته الاخيرة . وسلّمها لسيادة المطران مرقس حرام . فلم يتسع له الوقت لتنفيحها قبيل موته . فحرر اسبوع قبل وفاته الحادثة سنة ١٩٤٤ . رأته احدى بناته منهوكاً من التعب ؛ فالحت عليه ليأخذ نصيباً من الراحة . اجابها : « لا استطيع ذلك ؛ ربما كان بعض اصحاب القضايا متكلين على خدمتي لهم . من جهة اخرى ، الشغل خير عظيم ؛ لانه يحول دون فرط اهتمامنا بذواتنا . » هكذا ظل يشتغل الى اليوم السابق موته .

سنة ١٨٩٩ ، وهو ابن نحو اربعة وعشرين عاماً ؛ تزوج نفيدة بنت انطون تادرس ، من اعيان الاقباط الكاثوليك في المنصورة ؛ فرزق منها سبعة اولاد ؛ مات منهم ابن وبنت قبيل ختام سنتهم الاولى . توفيت نفيدة سنة ١٩٢٥ ؛ فاشتد زهد زوجها في اباطيل العالم ، واستولت عليه فكرة الابتعاد عنه والاستعداد للكهنوت ، واستشار مرشده اليسوعي ؛ فردعه عن ذلك العزم ، لفرط صعوبة انجازه ، وحرّضه على عقد زواج ثان . فانقاد لرأيه وتزوج سنة ١٩٢٩ ؛ وهو في الرابعة والخمسين من عمره ، هيلانة جبّور اللبنانية ؛ من طائفة الروم الكاثوليك . فانجبت له بنتاً ماتت عند ولادتها ؛ فبادر الى تعميدها ؛ ثم ابنين وبنتين لا يزالون في قيد الحياة .

لا مبالغة في تأكيدنا انه قد بلغ ذروة جميع الفضائل ، في حياة طويلة مشحونة بانواع المتاعب والمصائب .

كان قلبه الطاهر دائم الاشتعال بحب الله ؛ عز وجل ؛ ومن اوضح الادلة على ذلك كون المصلوب معلقاً بحائط مكتبه في بيته ، ليواتر النظر

الى صورة الله الذي مات مسمرًا على خشبة العار وفداة له . وقد احاط بثيابه الداخلية ذخيرة عود الصليب وثوب سيدة الكرمل ونوطها وانواطاً اخرى .

كان يحضر القداس مرارًا في الاسبوع . وحول سنة ١٩٢١ . صار يحضره ويتناول فيه كل يوم . بعد عودته من الكنيسة كان يقرأ ه الاقتداء بالمسيح » نحو ربع ساعة . ثم يذهب الى المكتبة . والسبحة في يده . قد اعتاد ان يسجد ساعة كاملة للقربان المقدس المعروض في خميس الاسرار . كان من اعضاء الرهبانية الفرنسيسية الثالثة . يحفظ قوانينها العديدة . ويحضر اجتماعات اعضائها . .

كان حر العبادة لقلب يسوع الاقدس . وقد نصّبه مذكاً لعائلته . وظل مثابرًا على التناول اول يوم جمعة من كل شهر . وحضور حتفة الساعة المقدسة في مساء الخميس السابق له . كثيرًا ما حضر الحفلات اليومية في شهر قلب يسوع . وقد علّق في اشرف محل من بهو منزله صورة بديعة للقلب الالهي من ريشة احدى بناته .

اما تعبده للعذراء المجيدة والدة الله : فقد بلغت اعلى درجات الحرارة والرقة . كان يتلو سبحتها كل يوم . ويمتنع اكراماً لها عن اكل الفواكه وانواع الحلوى كل سبت . ظل اعواماً عديدة . الى موته : رئيس اخوية العذراء للرجال : التي يديرها اليسوعيون في القاهرة . كان مواظباً على تبجيل البتول في كل ايام ايار شهرها . كان ينصب لها في داره مذبحاً جميلاً : يزينه بالزهور والانوار . وقد وضع عليه صورة كبيرة لانتقالها الى السماء : للمصور النابغة الاسباني موريليو (Murillo) : وتحته تمثال سيدة لورد (Lourdes) . فيتلو امامها : مع زوجته واولاده : بيتاً من السبحة : ثم طلبة العذراء ، وبعد ذلك يقرأ لهم ما يضرم قلوبهم بحب امهم السماوية . كان يفعل معهم مثل ذلك في الايام الخمسة عشر السابقة عيد انتقالها المجيد ، وطول تلك المدة : لا يكتفي بحفظ القطاعة المفروضة عن اللحم : بل يجتزئ باكل بقول مسلوقة بالماء وفواكه .

كان يلذ له جدًا ان يرتل مع امرأته واولاده تراتيل جميلة للعذراء : على الاخص في عطلة الصيف وحين سياحاته معهم على النيل .

في سنوات دراسته الحقوق في باريس ، كان يزور لورد قبل قضائه عطلة الصيف بين اقاربه . سنة ١٩٢٥ : التي ماتت في اوائلها زوجته نفيدة : ظل مع اولاده شهرًا كاملاً في لورد . كان قد وصل اليها حول الساعة التاسعة

مساء . فقاد بنيه فوراً الى المغارة الشهيرة . قبل ان يستريحوا قليلاً في الفندق من عناء السفر الطويل .

قد اصاب كل الاصابة بجعله المقام الاول للقديس يوسف . في تعبده لاولياء الله . كان يزيد اكرامه له طول شهر آذار المكرّس له : فيتلو مع اهل بيته صلوات مختصة بافراحه الكبرى السبعة وباحزانه الكبرى السبعة . وقد ميز بين سائر القديسين فيليبس نيري (Neri) . الذي تحمل باسمه : وتزاريه ليسوع الطفل .

ذلك اخيام بالله تعالى ووالدته واوليائه قد اشعل قلبه بنار حب القريب . ولا سيما زوجته واولاده . كان شغله الشاغل الاهتمام براحتهم ورفاهتهم . وقبل كل شيء باسماء فضائلهم . فيستصعب جداً الغياب عنهم . ولو بضعة ايام . عند مسيس الحاجة . في اعياد الميلاد ورأس السنة والفصح واعياد شفعاء اهل بيته : كان يذهب الى القداس معهم ، ثم يبدي لهم في منزله افكاره السامية وعواطفه النبيلة في شأن العيد . كان يصنع هو ذاته مغارة الميلاد في بيته . كل سنة بشكل جديد ؛ وقد وضع مرة ابنه الطفل في مذودها ، بدلاً من تمثال الطفل الالهي . كان يرتل باحر التقوى تراتيل ميلادية مع امرأته وبنيه .

كان شديد التأثر من محاسن الطبيعة : منظر النيل الهادئ والبحر المتلاطم الامواج والسماء المرصعة بالنجوم ؛ كان يرفع فوراً نفسه الى الخالق اللامتناهي الجمال . فينطلق لسانه امام ذويه في تعظيم قدرة الله وحكمته وحبه العجيب للبشر .

كان يوبخ اولاده بغاية الحلم على عيوبهم وذنوبهم ؛ واذا استغفروه عنها . نالوا عفوه في الحال . قالت لنا بنته رنه (Renée) — وهي راهبة اوروسولية منذ سنة ١٩٢٩ — : « من فرط لطفه الابوي : لم نستطع عصيانه « بدون شعورنا باسف شديد على إحزاننا قلبه المحب . ذات يوم طلبت منه « العفو عن اهانة ؛ فضمني ضماً شديداً الى قلبه وقال لي: فلنضرب صفحاً « عن ذلك . قد نسيت كل شيء . ثم حضنني بكل قوة حبه الابوي وباركني : « قبلغ مني التأثر مبلغاً اسال دموعي. »

كان لجميع اولاده تعلق شديد به : فلا يذهب احد الى فراشه قبل لثم يده . فيباركه ابوه برسم صليب على جبينه ؛ اما الغائبون ، فكان يباركهم عن بُعد .

دلت الاهتمام الدائم بتقديس اولاده . ظل يديه لثلاث راهبات من بناته . كتب لاحداهن في عيد جميع القديسين . « ليجعلنا الله كلنا قديسين باستحقاقات سيدنا يسوع المسيح . » وكتب لبنته ريه الاورسولية . في عيد القديسة جرترودة التي أطلق اسمها عليها في الرهبانية : « ليغمرك الله بنعمه « وبركاته . ويتسيرك قديسة عظيمة مثل شفيعتك ! ولتتشفع بواسطتك « نفوس اخرى عديدة . دعوتها ان تكون قديسات حقيقيات ! » كتب لها في عيد الميلاد : « ليجعل يسوع الطفل عرائسه المتواضعات والمختبئات قديسات عظيمات مثله ! » يوم نذورها الدائمة قال لها بقلمه : « الشكر لله . انما يجب « علينا اليوم خصوصاً . ان نقول مع امنا السماوية « تعظم نفسي الرب » . « وذلك بالنظر الى عدم جدارتنا . الفائق بدون حد عدم جدارتنا . على كل « حال كوني على الدوام صغيرة ومتواضعة مثلها . فيزيد رضى الله ان يخفض « نظره نحوك . وان يختارك . ولو غير مستحقة . عروساً لابنه الالهي . »

اما حبه لزوجته وبذل ذاته في خدمتها . فلم يتركا زيادة لمستزيد . لازمت فيدة الفراش عشرة اعوام . وهي مصابة بنوع من الكسح . كان يتناول الطعام معها ثلاث مرات كل يوم ، وكثيراً ما قطع نومه غير مرة في ليلة واحدة للقيام بخدمتها . كان يتخذ التدابير اللازمة لكيلا تبقى وحدها في غيابه ، ولا تحرم الاسرار المقدسة حرماناً طويلاً . كان يحضر مراراً عديدة كاهناً يسمع اعترافها ويناولها القربان الجليل ، بل يتم القداس في غرفتها باذن استثنائي . في يوم عيدها كان ينظم حفلة عائلية بمعاونة اولاده . ليملأ قلبها المتألم تعزية وفرحاً . كان يصطاف معها في الاسكندرية او المنصورة او رأس البر ، ليمكنها من التمتع بمشاهدة اعضاء عائلتها .

حين اصيبت بالتهاب الصفاق (péritonite) وتفاقم حالها وابتدأ نزاعها . لم يستطع وجود كاهن يبادر الى خدمتها . فسهر هو وابنته البكر بدور بجانب فراشها . وتلوا الصلوات للمنازعين ؛ ثم اتى الكاهن فمنحها الحلة والمسحة . فماتت ميتة الابرار . شاهدت ممرضتها البروتستانية هذه الميتة الهادئة وخضوع زكي الكامل لارادة الله في المصيبة الفادحة ، فاهتدت الى الكثلكة . ثم ماتت بضعة اشهر بعدئذ ، وقد منحتها بدور العماد المقدس بسبب ظروف قاهرة .

حظي الفقراء بحصة وافرة من محبة زكي وعنايته وحنانه . كان مدير فرع لجمعية القديس منصور ده پول (de Paul) الخيرية ، فقام باعباء تلك

الرئاسة حتى وفاته . كان يدخل احقر اكواخ الفقراء . ولا سيما المرضى ؛ ليقف على احتياجاتهم ويبادر الى ازالتها . في بعض الاحيان كان يزورهم وهو خارج من قصر عابدين . حيث واجه الملك فؤاد الاول . بين عليّة المرفهين . كثيرًا ما كان المساكين يذهبون الى بيته . في كل وقت . فيرحّب بهم ويتصدق عليهم . واذا طلبوا شغلاً يرتزقون به . بذل قصاراه لوجوده . كان يزور السجناء بين حين وآخر . بل كان عضوًا في اللجان الادارية لعدة جمعيات خيرية . فيزارها بماله الوافر وبنصائحه الرشيدة .

مع كثرة اشغاله وهمومه . كان دائم الاستعداد لخدمة قريبه عند سنوح الفرص . وهي لا تحصى . كان اخوته واخته يلجأون اليه في مصاعبهم . فيساعدهم على حلها كان علمه وفطنته وخبرته مستشارًا منارًا . يطلب رأيه كثير من الاساقفة والكهنة والرهبان . بل رؤساء بعض الرهبانيات . فيجمون منه اجل الفرائد . عشرات المرار طُلبت منه بطاقات توصية تقدم الى شخص من الاعيان ؛ فكان لا يعطيها الا للمستحقين . اذا طلب منه زميل ان ينوب منابه في المحكمة حين عطلة الصيف ؛ كان يقبل اقتراحه طوعاً . كذلك قد قبل مرارًا تكاليف ثقيلة الاعباء . مثل تنظيم الوداع لقاصد رسولي او استقبال خلفه .

من بلغ تلك القمة الشامخة من حب الله والقريب ؛ فلا شك في انه مزدان بسائر الفضائل المتدفقة حتماً من ذلك الحب . كانفجار الماء الزلال من ينبوعه .

كان زكي ذا عفة كاملة ؛ ينافس الرهبان في احتشامه المطلق مع النساء ؛ لا يحدّق البتة الى وجه احداهن ؛ بل يعدّ ذلك خيانة لزوجته . اذا مُدح امامه جمال امرأة او سئل عن رأيه فيه ؛ لزم الصمت او اجاب بعدم الاكتراث لامر حقير كهذا . اذا اقتحم احد على قول كلمة خلاعية او ذات معنيين بحضرته . ولو كانت فلتة لسان . كانت نظرة استياء منه كافية لاسكاته . فاه رجل بكلمة قبيحة امام بنت صغيرة لزكي . فعنّفه ابوها بغضب مقدس وقال له : « ويحك ! ان هذه الطفلة قد سمعتك . تذكر قول السيد المسيح : « الويل لمن يشكك احد اولئك الصغار ؛ فان ملائكتهم يرون على الدوام وجه ابي الذي في السموات . »

مع تلك العفة الكاملة كان ذا انس جذاب لكل عشرائه ؛ فيتوقون كل التوق الى رؤيته ومحادثته ؛ وكثيرًا ما كان يروي لهم من الفكاهات البريئة

ما يُضحك الثكلى . فضائله السامية كانت تبرز كُحياه في العالم بالنسامة تشرح الصدور .

كان ذا تواضع راسخ . فلا تقوى على حز دعائمه ما ازدان به من مزايا النفس والعقل الفريدة . وما انهال عليه من مدائح الناس لها . كان شديد النفور من المتغوفين بالمجد الباطل . المفتخرين بثروتهم وماقبهم . كثيراً ما قال : « السنبلة الملأى تخفي رأسها . والفارغة ترفعه . » طول حياته قد سطع تواضعه بجميع مظاهر تلك الفضيلة النادرة . كان يقرأ لبنته بدور الخطب التي يقصد القاءها في بعض الاحتفالات الدينية . ثم يطلب رأي الفتاة في غثها وسمينها . اهانه شخص مغمور نحنه . فاستغفر ربه . كأنه هو المذنب . وظل بعدئذ يعامله ارق المعاملة . حتى ابسه كرامته . المزيد من زواجه الثاني . الى الرهبانية اليسوعية . سنة ١٩٤٩ . ثم خرج منها بعد نحو ثمانية اشهر : فقال ابوه عنه لبنته ربه الراهبة الارسولية : « كان لي شرفاً « وسعادة ان ارى ابني يسوعياً . لكن الله قد وجدني غير جدير بتلك النعمة « السامية . فاراد تذليلي . ولا مندوحة لي عن الخضوع لارادته المقدسة . فقد « نزل هو ذاته الى اقصى دركات التواضع في سبيلنا . »

ان اجلى دليل على القداسة هو قبول اكبر التضحيات واثقل البلايا من يد الله . لا بالصبر الكامل فقط . بل بتحسس قلب هائم بحب جلالته . والحال ان تلك المأثرة البطلية قد تكررت مراراً عديدة في حياة زكي .

مع كثرة اشغاله المتنوعة وثقل اعبائها . كان يصوم كل الصيامات المفروضة في طائفته . ولا سيما في الاسابيع السبعة السابقة للفصح . ويعلم القاصي والداني انها اكثر منها في سائر الطوائف الكاثوليكية . فكان يمتنع عن الاكل الى الساعة الاولى ، بل الاولى والنصف بعد الظهر . واذا دُعي في تلك الاثناء الى حفلة شاي او نحوها . قبل الدعوة ولم يأخذ حصته من لذ الاطعمة والمشروبات .

كان يلذ له ان يقول لله تعالى في اول كل نهار « آمين ؛ فلتكن مشيئتك » : تعبيراً عن قبوله : قبل الاوان . بملء حريته : تتميم كل الواجبات . مهما صعبت : وحمل جميع الصلبان : مهما ثقلت .

ذات يوم ضاقت مذاهبه وانقبض قلبه الحساس لمحنة فاجأته : فلثم باطن يمينه ثم ظاهرها . مبيّناً بتلك الحركة انه يقبل طوعاً من يد مولاه الحنّان كل الخيرات والشرور على السواء.

اصيب بجرح في رجله . فلم يعأ به حتى تسمم . ثم تحتم على الطبيب ان يعالجه بادخال فتيلة فيه . فقاسى زكي وجعاً مبرحاً . ثم قال لبنته رنه : بعد انقضاء مدة طويلة : « كنت اعض شفتي من فرط الالم . بيد اني قدمت هذه التضحية الى السيد المسيح ، مقابلة لما قاساه من اهوال الاعدة لاجلي . » قد عاني مرارًا آلاماً فادحة في نوبات كلوية وغيرها . فكان يتصور من شدة الوجع . بدون ادنى شكوى . ثم يقول بعد زوال النوبة : « التألم « خير لنا . فانه يطهر نفوسنا واجسادنا . اذا عرفنا كيف نستفيد منه . الله يقربنا الى الله . ويثبتنا في التواضع . »

كان حبه لبنته بدور . الاولى بين جميع اولاده الاثني عشر . اشد منه بغيرها . ولا سيما بعد موت زوجته تنيدة سنة ١٩٢٥ عاهد اطلعه مرشد بدور حتى دعوة الله اياها الى الترهب ، فقال ابوها لها . « ان الله تعالى « قبل ان تكوني لي . اني لاتشرف جداً بان تكون احدى بناتي عروساً للسيد « المسيح . من ثم انا راض كل الرضى عن رغبتك في الترهب . فامنحك بركتي . » مع ذلك رأت بدور من الفطنة الا تثقل صليب والدها الارمل : فانتظرت نحو سنة ريثما تبلغ اختها ويلمين (Wilhelmine) العشرين من عمرها : فتقوم مقامها في السهر على الاولاد الصغار والقيام بالاشغال البيتية .

في سنة ١٩٢٦ اصطاف زكي واولاده في ضيعة لوترا (Lutra) الواقعة في جزيرة تينوس من بلاد اليونان : فكانوا يحضرون القداس كل صباح في دير الارسوليات القريب . في تلك الاثناء خطف من ذلك الدير شابان يونانيان اختهما الطالبة الترهب فيه . فاستاء زكي كل الاستياء من شراستهما : واوضح لهما بلطفه المألوف شناعة تعديهما على حرية اختهما ، فاعترفا بجسامة اثمهما واعادا الفتاة الى الدير . ثم احضر امها العجوز الثابتة على استهجان ترهب بنتها : فاراها بنته بدور ، وهي رائعة الجمال في ميعة الشباب : وقال للوالدة الغضبى انه راض كل الرضى عن ترهب بنته القريب ، مع كونها اعز اولاده . فاخذ التعجب من تلك الوالدة كل مأخذ ، ولثمت يديه ويدي بدور . ثم طلب زكي من رئيسة الراهبات احضار الفتاة المذكورة في بهو الدير ، فجاءت وركعت امام والدتها ، فباركتها هذه ، وعيناها مغرورقتان بالدموع .

بعد عودة زكي واولاده الى القاهرة ، اتى اليوم العصيب ، يوم سفر بدور الى فرنسة ، لكي تدخل دير الابتداء لراهبات الرب يسوع المكفّر ، في مدينة له مان (Le Mans) في تشرين الاول سنة ١٩٢٦ . يومئذ

طلب والدها المجروح ان يقام القداس لاجلها . فحضره كل اعضاء العائلة . بعد الظهر رافقتها في القطار الى الاسكندرية ؛ ثم ركب معها الباخرة المنطلقة الى مرسيلية ؛ حتى يودعها الوداع الاخير . لما حان رفع المرساة ؛ لثمت بدور يده وتعانقا . وانتسى منها ان تبقى واقفة على جانب ظهر الباخرة المشرف على الرصيف . ليراها بعد نزوله الى البر . فتناظرا بضع دقائق ، ولوّح كل منهما بمنديله ؛ ثم رسم زكي عدة مرار اشارة الصليب امام وجهه رسماً كبيراً. حين ابتعدت الباخرة الذاهبة بكنزه النفيس . شعر بارتخاء في ساقيه . يهدده بالوقوع . فامسك اخوه راغب بيده وسار به الى عربة يركبانها .

عاد زكي الى بيته بعد ذلك الوداع المبرّح . فرأى بنته رنه تنتبذ من فرط حزنها على فقدان اختها الكبرى . فوخزها على ذلك بعاية الوداعة . وهو يعني عنها لوعته الشديدة : « يا بنيتي العزيزة ؛ اهكذا تقابلين التضحية التي يطلبها منك الله ؟»

قبل ختام مدة ابتداء بدور الرهباني . قالت رنه لابيها انها تنوي الترهب ؛ فابى النزول عند رغبتها ، مبيّناً احتياجه اليها في موقفه الحرج . بعد ايام عرف ان طبيباً اختصاصياً في امراض الآذان قد فحص اذني بدور ، فاكد انها تصير طرشاء في عامها الاربعين ؛ مع ان اذنيها لا تزالان سليمتين بعد بلوغ العام الستين . على كل حال قد اعتزمت رئيستها صرفها واعادتها الى اسرتها . فغادرت دير الابتداء في ٢٢ نيسان ١٩٢٩ . عند وقوف ابيها على ذلك الخبر المشؤوم ؛ لثم مصلوبه لثمة حارة ؛ وحدّق اليه حيناً ؛ ثم قال لرنه : « الآن اطلق لك الحرية في الترهب ، فان اختك الكبيرة على اهبة الرجوع الى العالم . » فدخلت رنه دير ابتداء الاورسوليات في سان ديديه (St Didier) من ضواحي مدينة ليون في فرنسة ، إبان صيف سنة ١٩٢٩.

اما بدور ؛ فبعد خروجها القسري من الدير ؛ قضت مع والدها ثلاثة اعوام . وهي تائقة احر التوق الى استئناف حياتها الرهبانية . في تلك الاثناء عقد زكي زواجه الثاني سنة ١٩٢٩ ؛ ثم فاض قلبه فرحاً بولادة ابنه كزافيه (Xavier) . في تلك الآونة قُبل طلب انضواء بدور الى راهبات الزيارة في فرنسة ؛ فدخلت دير الابتداء في مدينة كُراس (Grasse) في آب ١٩٣٢ ؛ وكان انفصالها الثاني عن ابيها الحنون اخف وقعاً من الاول .

شغف زكي الدائم بحب الله تعالى قد حثه طول حياته على انتهاز كل فرصة لاجتذاب النفوس ، ولا سيما الفاترة الضالة الخاطئة ، الى معرفة السيد

المسيح وحبه وخدمته . ومقاومة اعدائه الالداء الدائبين على افساد النفوس المفدية بدمه الالهي .

اذ كان : حين شرع شبابه : في القاهرة . جاء اليها من فرنسة كاهن جحد الكهنوت وخلع ثوبه المقدس . واعلن انه ينوي القاء محاضرة . في مسرح الاوبرا (Opéra) . يبرهن فيها ان كل الاديان صالحة ومقبولة . فانذره زكي في رسالة مذيلة بتوقيعه . بان عدة رجال كاثوليك مستعدون لمنعه عن ذلك بالقوة القاهرة . في الواقع . ما كاد المحاضر يفتح فمه حتى اسكته زكي ومعاونوه بالصفير المتواصل وغيره من انواع التصحيح . فتحتم عليه الخروج والرجوع الى وطنه ، بعدما سيم خسفاً .

عدة اعوام بعدئذ — وكان زكي قد عُيِّن قاصياً — اتى من اوروبة الى القاهرة فريق من الثاوسوفيين [1] لالقاء محاضرات ينشرون بها مذهبهم الفاسد الذي يدك اركان الايمان المسيحي . عندئذ الحّ زكي على شخص من علية موظفي الحكومة : حتى يجعل على باب مكان المحاضرات : جنوداً يمنعون دخوله . فنال بغيته الشريفة ، وقسر دعاة الضلال على مغادرة مصر .

كان لا يطيق ادنى انتهاك لحرمة الكنائس . رأى مرارًا في احداها رجلاً يحضر القداس واقفاً او جالساً بدون ادنى خشوع : وهو لا يركع امام القربان المقدس . ثم يتناول ويخرج فوراً من بيت الله . ذات يوم اوقفه زكي عند الباب وسأله ما سبب سلوكه الشائن . فارتبك المذنب في اعتذاره الباطل . وشكاه زكي الى كهنة الكنيسة .

قد هدى الى الكثلكة احد كاتمي اسراره ، وحاول بكل جهده هداية نفوس اخرى عديدة . يوم تطواف بالقربان المقدس في الشوارع . رآه يهودي قابضاً احدى قوائم المظلة التي فوق الكاهن الحامل الخبز السماوي : فتأثر كل التأثر من شدة خشوع زكي الخافض عينيه والغائص في السجود لخالقه وفاديه . وما لبث ان انتحل النصرانية .

ذاع في كل انحاء وطننا خبر مآثر غيرة زكي على خلاص النفوس وتقديسها . فلما انشئ الاتحاد الكاثوليكي المصري في القاهرة سنة ١٩٢٢ لتوثيق عُرى التعاون الاخوي بين الطوائف الكاثوليكية : وتوسيع نطاق مساعيها لنشر

(١) الثاوسوفية شيعة دينية يدعي أتباعها الاتحاد بالله على وجه فاسد ، لا اساس له .

الايمان القويم وصيانة الاخلاق من عوامل الفساد المتكاثرة . أنتخب زكي رئيساً له باجماع الاصوات . من اعظم اعمال ذلك الاتحاد عقده مؤتمر العائلة في العاصمة . ابتداءً من ٥ ايار سنة ١٩٢٥ . وهو اول مؤتمر كاثوليكي في مصر . كانت اللجنة القائمة بتنظيمه تجتمع بتواتر . تحت رئاسة زكي . وقد طال تجادل اعضائها الى ان قرروا تناول تلاميذ جميع مدارس القاهرة الكاثوليكية . كل فريق منهم في معهده . يوم افتتاح المؤتمر . لاستمطار اغزر نعم الله عليه . بيد ان زكي وحده قد خالف رأيهم وطلب بلهجة شديدة ان يكون تناول جميع الطلاب في مكان واحد . ولو بعثت كل مدرسة وفداً منهم . فتنتج عن ذلك مشاهدة عظيمة رائعة . مرآها السحرة وحب الفقر بل التقدس كان القاصد الرسولي المدراوس كاسوري Cassulo . مؤسس الاتحاد الكاثوليكي المصري . حاضراً وقتئذ . فلاحظ انفراد زكي برأيه . مع ذلك قال لسائر اعضاء اللجنة المذكورة ، اتركوا البُوانرغس [1] وشأنه » . فتركوه موقنين انه يحاول المحال : وحملوه هو وحده مهمة تعيين المكان الفسيح اللازم لذلك التناول الجمهوري . الذي لم يسبق له مثيل في مصر . فاختار بعد طول التروي ساحة المدرسة الكبرى لاخوة المدارس المسيحية في حي الظاهر . وطلب منهم ان ينصبوا فيها . على طول اربعين متراً سبعة مذابح . المتوسط منها للقاصد الرسولي : والستة الاخرى لستة كهنة من الطوائف الكاثوليكية الموجودة في مصر . وان يجعلوا بازائها مائدة للتناول بطول اربعين متراً . وقد عُني هو ذاته بان تكون مغطاة بنسيج ابيض جميل . ثم ركب سيارة وذهب بها الى كل مدارس القاهرة الكاثوليكية . ليدعو وفداً من تلاميذها الى ذلك التناول العام : فقوبل في جميعها بأحر الترحيب . فضلاً عن ذلك رتّب كل تفاصيل التقدمات السبعة المنوية اقامتها في الآن ذاته . وحدد طريق الذاهبين الى التناول . وطريقاً آخر للعائدين منه .

كان الاعيان من المدعوين في اول الصفوف : امام المذابح المرفوعة على مساطب ليراها آلاف الحاضرين . ووراءهم جماهير التلاميذ والتلميذات . وعددهم يفوق اربعة آلاف : وخلفهم جم غفير من غيرهم . وقد علقت ببعض الاشجار الواح كُتبت عليها اسماء المدارس .

---

(١) قد سمى السيد المسيح يعقوب ابن زبدى واخاه يوحنا بوانرغس ، اي ابني الرعد : اشارة الى حدة طبعهما .

تُقدر عدد الحاضرين بنحو اثني عشر الفاً . وعدد المتناولين باربعة آلاف ونيّف . فاولهم اثنا عشر كاهناً . وقد جرت هذه الحفلة البديعة بأتم الترتيب . ووفق نجاحها اجمل الآمال .

في مساء ذلك اليوم اجتمع اعضاء مؤتمر العائلة وغيرهم من المدعوين في كنيسة القديس يوسف للفرنسيسيين . فصعد القاصد الرسولي الى المنبر . وقرأ عليهم تلعراف البابا بيوس الحادي عشر الحاوي بركته لهم .

دام المؤتمر نحو اسبوع . وأقيمت جلساته في عدة مدارس ومسارح وبيعة . ألقيت فيها كل يوم محاضرات بالعربية والفرنسية والايطالية . على ترقية احوال العائلة المسيحية . وقد القى زكي بالعربية الرحيم وفصاحته الرائعة . خطاب ختام المؤتمر

قد نظّم هو ايضاً برنامج زيارة كاتوليك مصر الجمهورية لرومية . سنة ١٩٢٥ اليوبيلية . وقدم كلاً من الزوار الى الحبر الاعظم في المواجهة الخاصة التي عينها لهم نائب السيد المسيح . قد منحه بيوس الحادي عشر وسام كومندور من سلسلة ارسمة القديس غريغوريوس الكبير . واعطته الحكومة الايطالية وسام كومندور المنسوب الى تاج ايطالية ؛ والحكومة الفرنسية وسام اوفيسيه (officier) للمعارف العامة (de l'instruction publique) .

قال الكتاب المقدس : « البارّ يزهر كالنخلة ويتكاثر كارز لبنان » هكذا زهت في حياة زكي الفضيلة زهور جميع الفضائل . وتكاثرت اعماله الصالحة بالربوات . قال قادتنا الالهي : « اسهروا وصلوا لانكم لا تعلمون اليوم ولا الساعة . » بهذه الوصية الخطيرة يفرض علينا التيقظ الدائم والتقوى الثابتة لئلا يفاجئنا الموت . ونحن غافلون ومدنسون بخطيئة مميتة تدهورنا في نار جهنم الابدية .

زكي كان دائم الاستعداد لمغادرة هذه الحياة الدنيا والمثول بين يدي ديانه . فقد هام به وخدمه على الارض بحب ابر الابناء لاحن الآباء . كان موته شبه فجائي : فان مرضه لم يدم اكثر من نحو ثماني عشرة ساعة . قبل فجر ٢٤ آذار سنة ١٩٤٤ اصيب بتغص كلوي : فاستخف به وظمأن زوجته ؛ فذهبت كعادتها لحضور القداس والتناول . حين عادت الى البيت . وجدت زوجها شديد التألم : وقد اعترته نوبة جديدة اثقل من الاولى . لم يأت الطبيب المستدعى في الصبح الا الساعة الاولى بعد الظهر ؛ فتحقق ان العليل مصاب بالتهاب الرئتين المزدوج . في المساء تفاقم ضعف القلب وانشتت

الكبد . فمات ركبي بدون نزاع . ولم يتسع الوقت لتزوده بالاسرار المقدسة . اراد الرب الخالق الحكمة ان يختزمه الموت في وقت قصير . لئلا يذوق عبده الامين امرّ الاحزان بطول تفكيره في مصير زوجته الكاهلة الارملة واولادها الاربعة اليتامى الصغار .

مات بطل الايمان المسيحي ومجد طائفتنا القبطية العزيزة . وسبحة العذراء في يده . والابتسام على شفتيه . وقد بقي عليهما بعد وفاته . وبحياه الشاحب مزدان بسلام الراقدين في حضن مولاهم . وقد كافأه الله في هذه الدار الفانية على تعبده الحار لامه السماوية وللقديس يوسف : بجعله يموت في الشهر المكرس لذلك القديس وفي يوم عيد البشارة .